مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يُذكّرُ اللهُ عبادَه المؤمنين ما أنعَمَ به عليهم من بعثةِ الرسول ﷺ، يتلو عليهم آيات الله مُبيِّنات، ويُزكّيهم. أي: يُطهرهم من رذائل الأخلاق، ودَنَس النفوس، وأفعال الجاهلية، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور، ويُعلّمهم الكتاب: وهو القرآن، والحكمةَ: وهي السُّنة، ويُعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون.

لقد انتَقلوا ببركةِ رسالته، ويُمْنِ سفارته إلى حالِ الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمقَ الناسِ علماً، وأبرَّهم قلوباً، وأقلّهم تكلُّفاً، وأصدقهم لهجةً.

وقد ذمَّ الله مَن لم يعرف قَدْرَ هذه النعمة، فقال: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢) قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: « يعني بـــ " نعمةِ الله " محمداً ﷺ، ولهذا نَدَبَ الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة،

---

(١) البقرة: ١٥١، ١٥٢.

(٢) إبراهيم: ٢٨.

ومقابلتها بذكره وشُكره، فقال سبحانه: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [1]، قال مجاهد في قوله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ... ﴾ يقولُ: « كَمَا فَعَلْتُ فاذْكُروني ».

أخي المسلم: إن إرسالَ الرسول ﷺ له غايةٌ لا بُدَّ أن تُدرك، وأن يسعى المؤمنُ لتحقيقها. وعبادةُ الله هي الغاية التي من أجلها أرسل الله الرسولَ، وأنزل الكتابَ.

والرسولُ ﷺ هو القدوةُ والأسوة فيما أُرسِلَ له وبُعِثَ به ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [2]

فقد كان ذِكْرُه لله لا ينقطعُ على أيِّ حالٍ كان، كما قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها: « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ » [3]

من هنا نستطيعُ أن نتدبَّرَ ما قاله مجاهدُ في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾، وقوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ فقد ربَطَ بين الآيتين بقوله: « كما فعلتُ فاذكروني »، وهذا الربطُ بين الآيتين يدل على فقهٍ وحُسنِ تدبرٍ؛ فإن نعمةَ إرسال الرسول ﷺ من أَجَلِّ النِّعم، وهي جديرةٌ أن تُذكَر، وأن تُشكَر.

---

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) مسلم: كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم ٥٥٨.

والربطُ بين الآيتين له من الدلالة ما لا يَخفى؛ فالله - بفضله ورحمته - قد أنعم على خَلقه بإرسال رسولٍ منهم، يتلو عليهم آياته، ويُزكيهم، ويُعلّمهم الكتاب والحكمة، ويُعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

وحَفِظَ ما أوحي به إليه من الكتاب والحكمة؛ ليُذكر ولا يُنسى، ويُعبد ولا يُشرك به، ولا يكون ذلك إلا باتباعٍ لا ابتداعَ فيه، وقد أرسل اللهُ الرسولَ؛ ليكون أسوةً فيما بُعِثَ به وأُرْسِلَ من أجله، فلا عبادةَ بغير ما شرع الله، ولا سبيلَ لتحقيق ذلك إلا بحُسن الاتباع لمن أرسله الله ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: بهذا نتلقَّى الدِّينَ علماً وعملاً، ونراه أُسوةً وخُلقاً، فنُصلِّي كما رأيناه ﷺ يُصلِّي، ونأخذ عنه مناسكنا، ونتبع صراطَه المستقيم في كُلِّ شأنٍ من شئوننا؛ حتى لا تتفرَّق بنا السُّبل، أو تُمزقنا الأهواءُ والبدع.

نتَّبع صراطَه المستقيم؛ عملاً بوصية ربِّنا ودعوةِ نبيِّنا ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (٢) تتَّقونَ الفُرقة، والحسرةَ، والندامةَ، وسُوءَ المصير.

وكتابُ الله تعالى على رأس الصـــراط يدعوكم إلى حُسن الاتباع وعدم التفرق ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ لتسلم دُنياكم من هوانِ الفُرقة والتنازع، وتسلم

---

(١) آل عمران: ٣١.
(٢) الأنعام: ١٥٣.

أُخراكم من سُوء العاقبة والمصير.

أخي المسلم: تلك مهمةُ الرسول، وهذه صفاتُه ﴿ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

ولا أتصوَّرُ أن الإنسانَ يحتاج في سلوكه - والأمة في روابطها وضوابطها - أكثرَ من ذلك، ومهما تجدَّدت الحياةُ، وامتدت في عطائها، فلن تُصان من فتنٍ هَوْجاء إلا بما تضمَّنته هذه الصفات التي لا بُدَّ منها لتربية الفرد وصيانة المجتمع.

إنها صفات تُتيح لمن آمنَ واعتصم بها أن يتقبَّلَ الإيجابيات في أيِّ زمانٍ أو مكان، وأن يَرُدَّ السلبيات، ويجتنب الإساءات.

إن هذه الصفات يتحقق بها صلاحُ الفرد وسلامة المجتمع. وما المجتمع - في حقيقته - إلا مجموع أفراد، فالفرد الصالح تصلح به الأمور الفاسدة، والفرد الفسد تفسد به الأمور الصالحة.

فلنذكر الله ولنشكره أنْ أرسلَ إلينا رسولاً من أنفسِنا.

مع ابن كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يُخبرُ الله تعالى عن تفرُّده بالألوهية، وأنه لا شريكَ له، ولا عَديلَ له، بل هو الله الواحدُ الأحد، الفردُ الصَّمد، الذي لا إله إلا هو، الرحمن الرحيم. ثم ذَكَر الدليل على تفرُّده بالألوهية بخَلقِ السماوات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك ممَّا ذَرَأَ وَبَرَأَ من المخلوقات الدَّالة على وحدانيته، فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تلك في ارتفاعها، ولَطَافتها،

(١) البقرة: ١٦٣، ١٦٤.

واتساعها، وكواكبها السَّيارة، ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها، وانخفاضها، وجبالها، وبحارها، وقفارها، ووهادها، وعُمرانها، وما فيها من المنافع.

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ هذا يجيء ثم يذهب، ويخلفه الآخرُ ويعقبه لا يتأخر عنه لحظةً، كما قال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [1]، وتارَةً يطُول هذا ويقصر هذا، وتارةً يأخذُ هذا من هذا، ثم يتعاوضان، كما قال تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ [2] أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا.

﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: في تسخير البحر بحمل السفن من جانبٍ إلى جانب؛ لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الأقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء، وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [3]

﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ أي على اختلاف أشكالها، وألوانها، ومنافعها،

---

(١) يس: ٤٠.
(٢) الحديد: من الآية ٦.
(٣) يس: ٣٣- ٣٦.

وصغيرها، وكبيرها، وهو يعلمُ ذلك كُلَّه ويرزقه، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ أي: فتارةً تأتي بالرحمة، وتارةً تأتي بالعذاب، وتارةً تأتي مُبَشِّرةً بين يدي السحاب، وتارةً تسُوقه، وتارةً تجمعه، وتارةً تُفرِّقه، وتارةً تُصرِّفه.

﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: سائر بين السماء والأرض، مُسَخَّرٌ إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن.

﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بيِّنة على وحدانية الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾(٢)

أخي المسلم: أرأيتَ كيف تُعينك هذه الآياتُ على ذِكر ربِّك، وتدعوك إلى توحيده وعبادته بأسلوبٍ فطري لا عُسْرَ فيه ولا تكلُّف.

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ هذه الحقيقةُ، ألاَ ترى أن كُلَّ شيءٍ يُصدقها ويدعو إليها. ألاَ ترى أن آيات الله في الآفاق وفي الأنفس

---

(١) هود: ٦.

(٢) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

تدعو الإنسانَ إلى اليقين بهذه الحقيقة، وتُرشده إلى الحق الذي به آمن ومن أجله خُلق.

ألاَ ترى أن هذه الآيات هي للإنسان - حيثُ كانَ - عِبرةً لأُولى الأبصار، وعَوناً لِمَنْ أراد أن يذّكرَ أو أراد شكوراً.

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (٢)

فطُوبَى لَمن تذكَّرَ واعتبر، وويلٌ لِمَن قرأ هذه الآيات و لم يتفكر؛ فإن الله قد يَسَّر سبيلَ هدايته، وجعل من آياته في السماوات والأرض - وما خَلق من شيء - تبصِرةً وذِكرى لكل عبدٍ مُنيب.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

---

(١) النور: ٤٤.

(٢) الفرقان: ٦٢.

(٣) ق: ٦- ٨.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: هذا في الرجل يكون عليه مالٌ، وليس عليه فيه بَيِّنَةٌ، فيجحدُ المالَ، ويُخاصِمُ إلى الحُكَّامِ، وهو يعرف أن الحقَّ عليه، وهو يعلمُ أنه آثِمٌ، آكِلٌ للحرام ! وكذا رُوِيَ عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وغيرهم، أنهم قالوا: لا تُخَاصِم وأنتَ تعلمُ أنكَ ظالمٌ.

وقد ورد في الصحيحين من حديث أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ (٢) بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلا يَأْخُذْهُ؛ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ » (٣)

فدلَّت هذه الآيةُ الكريمة وهذا الحديثُ على أن حُكْمَ الحاكم لا يُغَيِّرُ الشيءَ في نفس الأمر، فلا يُحِلُّ - في نفس الأمر - حراماً هو حرامٌ، ولا يُحَرِّمُ حلالاً هو

---

(١) البقرة: ١٨٨.

(٢) أيْ أفطن بها، وأحسن إيرادا للكلام.

(٣) البخاري: كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، رقم ٦٦٣٤.

حلالٌ، وإنما هو مُلزمٌ في الظاهر، فإنْ طابق في نفس الأمرِ فذاك، وإلاَّ فللحاكمِ أجرُه، وعلى المُحْتَالِ وِزْرُه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ أي: تعلمون بُطلانَ ما تدَّعُون وترجونه في كلامكم.

قال قتادة: اعلم - يا ابن آدم - أن قضاءَ القاضي لا يُحِلُّ لك حراماً، ولا يُحِقُّ لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهودُ، والقاضي بشرٌ يُخطئُ ويُصيب، واعلموا أنَّ من قُضِيَ له بباطلٍ أن خُصومته لم تنقضْ حتى يجمعَ الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطِلِ للمُحِقِّ.

أخي المسلم: ذاك ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير هذه الآية ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ وفي ذلك ما فيه من تبصرةٍ وذِكرى، فهل من مراجعةٍ للنفس ومحاسبةٍ لها؛ لنُؤَدِّي الحقوقَ قبل ألاَّ يكون هناك دينارٌ ولا درهم ؟

قال ﷺ: « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ [1] الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ » [2]

ولو استحضر كُلُّ إنسانٍ أنه سيُسْأَلُ يوم القيامة - فيما يُسْأَلُ - عن مالِه من

---

(١) أي يطلب منه أن يسامحه ويعفو عنه.

(٢) البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، رقم ٢٢٦٩.

أينَ اكتسبه، وفيمَ أنفقه، لَعَفَّ كثيرٌ من الناس عمَّا يُلهيهم عن طاعةِ ربِّهم - فيما يأمُرهم به أو ينهاهم عنه - وقد أَلْهَاهُم التكاثرُ، ونَسوا ما هم مُقبلون عليه من يومِ حساب وساعةِ جزاء.

إنَّ الحقوق لا بُدَّ أن تُؤَدَّى، ولن يفْلتَ أحدٌ من أداء. قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾[1]

وقال ﷺ: « لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ [2] مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ » [3]، وفي الحديث المتفق عليه، عن أُمِّ المؤمنين عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنْ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » [4]

ولكي تستطيعَ - أخي المسلم - أن تنتصرَ على هَوى نفسك، عليك أن تَرُدَّها دائماً إلى الحقِّ، وأن تَقْنَعَ - بعد أخْذكَ بالأسباب التي شرعها الله - أن تقنعَ بما آتاك الله، وأن ترضى عن ربِّكَ في عُسرك ويُسرك؛ لتظْفَرَ بغناه في نفسك، ورضاه بعدُ في جميعِ أمرك، و « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » [5]

وكُنْ صادقاً مع نفسك، لا تُمَنِّها بما يُرديها، ولا تَنْشُد لها ما يُطغيها، ولا تدخل بها مداخلَ السُّوء؛ رغبةً في العاجلة؛ فما ترغبُ فيه أنت تاركه، وما تنساه من أمر الآخرة أنت صائرٌ إليه، ومُنْتَهٍ عنده، ونَفَسُ الإنسانِ خُطاهُ إلى أجله.

وإذا كُنْتَ في إدبارٍ، والموت في إقبالٍ، فما أسرع الملتقى.

---

(١) البقرة: ٢٨١.

(٢) الْجَلْحاءُ: هي الْجَمّاءُ الّتي لا قَرْنَ لَهَا. الْقَرْنَاءُ ضدُّهَا.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٤٦٧٩.

(٤) البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم ٢٢٧٣.

(٥) مسلم: كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، رقم ١٧٤٦.

٥

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يقول الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أي: قبل أن تُبتلوا وتُختبروا وتُمتحنوا، كما فُعِلَ بالذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال: ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ وهي الأمراض، والأسقام، والآلام، والمصائب، والنوائب. قال ابنُ مسعود وابنُ عباس: ﴿ ٱلْبَأْسَآءُ ﴾ الفقر، ﴿ وَٱلضَّرَّآء ﴾ السُّقم. ﴿ وَزُلْزِلُواْ ﴾ أي: خُوِّفُوا من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتُحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث الصحيح عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ (٢) فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا (٣)؟ أَلا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا (٤)؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فيه.

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) أيْ كساء مُخطَّطٌ. والمعنى جاعل البُرْدَة وسادة لهُ، منْ توسّد الشّيْء، جعلهُ تحْت رأْسه.

(٣) الاستنصار: طلب النُّصرة.

(٤) أيْ على المُشْركين؛ فإنّهمْ يؤْذوننا.

فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ (١) وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ (٢) حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ (٣) لا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » (٤)

وقال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ (٥) وقد حصل من هذا جانبٌ عظيمٌ للصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في يوم الأحزاب، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ ﴾ (٦)

ولما سألَ (هرقلُ) أبا سفيان: « هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ ؟ قَالَ: تَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالاً، يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ. قال:

---

(١) قال الطِّيبيُّ: فيه مبالغة بأنّ الأمشاط لحدّتها وقوّتها كانتْ تنفذ منْ اللّحْم إلى العظْم وما يلْتصق به منْ العصب.

(٢) أيْ أمْر الدّين.

(٣) صنْعاء: بلد باليْمن، وحضْرموْت: موْضع بأقْصى اليْمن.

(٤) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٣٤٣.

(٥) العنكبوت: ١- ٣.

(٦) الأحزاب: ١٠- ١٢.

كَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمْ الْعَاقِبَةُ » (١)

وقولـــه: ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ ﴾ أي: يستفتحون على أعدائهم، ويدعون بقُرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة. قال الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ كما قال: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ (٢) وكما تكون الشدةُ ينـــزِلُ من النصر مثلُها، ولهذا قال: ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾

أخي المسلم: ذاك ما ذكره الإمام ابنُ كثيرٍ في تفسير هـــذه الآية من سورة البقـــرة ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ وقد أرانا تأويلَها في واقعِ حياة الرسول ﷺ والمؤمنين معه، وقد عرفنا من هذه الآية - وغيرها من الآيات البيِّنات - أن سُنَّة الله في خَلقه أن يبتليهم بصُنوفٍ من البلاء تُعْرَفُ به معادنُهم، وتتميَّزُ صفوفُهم، فلا يستوي في الجزاء مُحسنُهم ومُسيئُهم، وتَقيُّهم وفاجرُهم، والله أعلمُ بهم.

وقـــد بَيَّنَ لهم كُلَّ شيءٍ، وبصَّرهم بما هم صـــائرون إليه، ومُحاسَبون عليـــه؛ ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ ﴾ (٣)

---

(١) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رقم ٤١٨٨.
(٢) الشرح: ٥، ٦.
(٣) الأنفال: من الآية ٤٢.

فهل يتدبر ذلك أهلُ الإيمان ؟ ويتذكَّر أولوا الألباب ؟

إنَّ القرآن الكريم قد أُنزل وحُفظَ؛ ليكون لهم تبصرةً وذكرى، وليُحسنوا الإجابةَ عمَّا يُمتَحَنُون به من شدةٍ ورخاء، ويُسر وعُسْر، وليُصدِّقوا بأعمالهم ما وَقَرَ في قلوبهم، فليس الإيمانُ بالتمنِّي، ولكن ما وُقِرَ في القلب، وصدَّقه العمل.

ومن سُنَّة الله ألا يَـدَعَ الناسَ أن يقـولوا: آمنا، دون ابتلاءٍ واختبارٍ وامتحان.

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ (١)

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١ ﴾ (٢)

بهذا يستقرُّ في النفوس العدلُ والاعتدالُ في مواجهة الأحداث المتجددة، والحظوظِ المتباينة، ويبلغ مَن يبلغ حقيقةَ الإيمان بامتحانٍ واختبار، ولن يبلغَ عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتى يعلمَ أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه.

عندئذٍ يتحقَّقُ الثباتُ في مواجهة الأحداث، وتُوزن الأمورُ بميزان الحق، لا بموازين الهوى، ويرى الناسُ العواقبَ قبل أن يتعلَّقوا بالرغائب ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩ ﴾ (٣)

---

(١) العنكبوت: ٢، ٣.

(٢) محمد: ٣١.

(٣) ص: ٢٧- ٢٩.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

أخبرَ الله تعالى أنَّ الصدقةَ تَبْطُلُ بما يَتْبَعها من المَنِّ والأذَى، فما بَقِي ثوبُ الصدقةِ بخطيئةِ المَنِّ والأذَى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾، ثم قال: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: لا تُبطلوا صدقاتكم بالمَنِّ والأذَى كما تَبْطُل صدقةُ مَن راءَى بها الناسَ، فأظهَرَ لهم أنه يريدُ وَجْهَ الله، وإنما قَصْدُه مَدحُ الناس له، أو شُهرته بالصفات الجميلة؛ ليُشْكَر بين الناس، أو يُقال: إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قَطْعِ نَظَرِه عن معاملةِ الله تعالى، وابتغاءِ

(١) البقرة: ٢٦٤، ٢٦٥.

مرضاته وجزيلِ ثوابه؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾.

ثم ضربَ تعالى مَثَلَ ذلك المُرائي بإنفاقه، والذي يُتْبِعُ صدقتَه مَنًّا أو أذىً، فقال: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ وهو الصخرُ الأمْلَس ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ ﴾ وهو المطرُ الشديد ﴿ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ أي فتركَ الوابلُ ذلك الصفوانَ صلداً، أي أمْلَسَ يابساً، أي: لا شيءَ عليه من ذلك التراب، بلْ قد ذهب كُلُّه. والمعنى: وكذلك أعمالُ المُرائين تذهبُ وتضمحِلُّ عند الله - وإنْ ظَهَرَ لهم أعمالٌ فيما يرى الناس - كالتراب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ هذا مَثَلُ المؤمنين المُنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: وهم مُتَحَقِّقون ومُتَثَبِّتون أنَّ الله سيجزيهم على ذلك أوفرَ الجزاء. ونظيرُ هذا في المعنى قولُ الرسول ﷺ: « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا.... الحديث » [1] أي: يؤمنُ أنَّ الله شَرَعَهُ، ويحتسبُ عند الله ثوابَه. قال الشعبي: ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: تصديقاً ويقيناً. وكذا قال قتادةُ، واختاره ابنُ جرير، وقال مجاهدُ والحسن: أي: يتثبَّتون أينَ يضعون صدقاتهم.

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان، رقم ٣٦.

وقولـــه: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ أي: كَمَثَلِ بُستانٍ بربوة، وهي المكان المرتفع من الأرض ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ وهو المطـــرُ الشديد ﴿ فَآتَتْ أُكُلَهَا ﴾ أي: ثمرتهـــا ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ أي: بالنسبة إلى غيرها من الجنات ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ هو الرَّذَاذ، وهو اللَّيِّن من المطر. أي: هذه الجنة بهذه الربوة لا تَمْحُلُ أبداً؛ لأنها إنْ لم يُصبها وابلٌ فَطَل، وأيّاً ما كان فهو كَسْبُها، وكذلك عملُ المؤمن لا يبورُ أبدً، بل يتقبَّله الله، ويُكثّره ويُنمِّيه، كُلٌّ عاملٍ بحَسبه؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي: لا يخفى عليه من أعمال عباده شيءٌ.

أخي المسلم: تستطيعُ بهذا المَثَل وذاكَ أن تعرفَ قيمةَ الإيمان وما يُؤدِّيه في حياةِ الإنسان من زكاةٍ وصلاحٍ ونَماءٍ.

في المَثَلَيْنِ حالان متقابلان، هما: لقلبٍ خَالٍ من الإيمان، يُنفقُ مالَه رئاءَ الناس، ولا يؤمنُ بالله واليوم الآخر، وقلبٍ عامرٍ بالإيمان، يُنفقُ مالَه ابتغاءَ مرضاة الله.

وترى النتائجَ المحسوبة في الحالَيْن، بل تشهدُ النتائجَ والعواقبَ في المَثَلَيْنِ للقلب الذي أنفق مالَه رئاء الناس، فلم يُثمر خيراً، والقلب الذي ينفقُ ابتغاءَ مرضات الله، فامتدَّ عطاؤه، وكَثُرَ نماؤه.

ويمكنك - وأنت تقرأ الآيتين - أن تعرفَ نتائج ما تقصد وتريد، فإذا اتبعت وجْهَ ربِّك، فتلك هي الثمارُ والنتائج ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وإذ أضمرَ

القلبُ غيرَ ما يرضى به الله - من شركٍ أو رياءٍ - جاءت النتائجُ كاشفةً مُظهِرةً ما أضمرته النفسُ وأخْفَتْهُ، والله لا يقبلُ من عملٍ إلا ما كان خالصاً لوجهه.

والله ﷻ ينهى أهل الإيمان ويُحذِّرهم من أن يَقَعُوا فيما وقع فيه أهلُ البوار والخُسران ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾

فلنُحْسِن العملَ، ولنُخْلِص القَصْدَ لله، ولنَعْلَم أنَّ سُنَن الله تعالى لا تُجامِلُ أحداً، ولا تُحابي بشراً، ولا تتبدَّل ولا تتحوَّل ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (١)

فابدأ - في جميع عملك - بتصحيح نِيَّتِكَ، فـ « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » (٢)، وراقِبْ نفسَك، واحذَرْ أن تَنْسَى ذِكْرَ ربِّك، وأن يستحوذَ عليك الشيطانُ، فيقُودك - مع الغفلة والنسيان - إلى إحباط عملك بشركٍ أو رياء، أو إبطالِ نفقتك بمَنٍّ أو أذىً ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦ ﴾ (٣)

اللهم إنا نعوذُ بك أن نُشركَ بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه.

---

(١) الزلزلة: ٧، ٨.

(٢) البخاري: كتاب بدء الوحي، رقم ١.

(٣) فصلت: ٣٦.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

قال البخاريُّ عند تفسير هذه الآية: قال عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوماً لأصحاب رسول الله ﷺ: فيمَنْ تَرَوْنَ هذه الآية نزلت: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ ؟ قَالُوا: اللَّهُ أَعْلَمُ. فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ، أَوْ لا نَعْلَمُ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي، قُلْ وَلا تَحْقِرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلاً لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَعَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ.(٢)

قال ابنُ كثير: وفي هذا الحديث كفايةٌ في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من مَثَل بعَمل مَن أحسن العمل أوَّلاً، ثم بعد ذلك انعكس سَيْرُه، فبدَّلَ الحسنات بالسيئات، عياذًا

---

(١) البقرة: ٢٦٦.

(٢) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: أيود أحدكم أن تكون له جنة، رقم ٤١٧٤.

بالله من ذلك، فأبطَلَ بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدَّم من الصالح، واحتاج إلى شيءٍ من الأوَّلِ في أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شيءٌ، وخانَهُ أحوجَ ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ ﴾ وهو الريح الشديد ﴿ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ أي: أحرق ثمارَها، وأبادَ أشجارَها، فأيُّ حالٍ يكون حاله ؟!

أخي المسلم: إنَّ هذا التفصيل والبيان يدعوكَ أن تتدبر وأن تتفكَّر ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ أي تعتبرون وتفهمون الأمثالَ والمعاني، وتُنـــزلونها على المراد منها.

فمَن ذا الذي يَوَدُّ أن يكون كذلك ؟ أن تكون له جنةٌ من نخيلٍ وأعناب، تجري من تحتها الأنهارُ، وله فيها من كُلِّ الثمرات، وأصابه الكِبَرُ، وله ذريةٌ ضُعفاءُ، فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ، فاحترقت، احترقت تلك الجنةُ، وبقي صاحبُها بِمَضْيَعَةٍ، مع ضَعْفه وثِقَلِ ظَهْره بالعيال وقِلَّة المال.

وذلك تمثيلُ حال مَن يفعل الأفعالَ الحسنة، ويضُمُّ إليها ما يُحبطها - كرياءٍ أو إيذاءٍ - تمثيل حاله في الحسرة والأسَف بحالِ من اشتدَّت حاجتُه يوم القيامة إلى أعماله، فوجدها مُحبَطَة ضائعَة !

دمارٌ وضياعٌ في فترةٍ لا يمكنُ فيها استرجاع ما فات، فمَن ذا الذي يَوَدُّ أن يكونَ في هذا الموقف ؟

أيَوَدُّ أحدُكم أن يعملَ عُمُره بعملِ الخير، حتى إذا فَنِيَ عمُرُه، ختم ذلك بعملِ أهل الشقاء، فأفسَدَ ذلك وأحرقه ؟!

إن الإنسان في كِبَرِه يتمنى سَعةَ رزقه؛ حتى لا يكون عالةً على غيره، وليس له قدرةٌ على سعيٍ وعملٍ، فكيف بَمن يأتي عند انقضاء أجله ولا يجد شيئاً صالحاً من عمله.. لقد أحبطه وأحرقه. كذلك الذي أُحرقت جنتُه بإعصارٍ فيه نار، وأصابه الكِبَر وله ذريةٌ ضُعفاء.

أخي المسلم: ذاك مَثَلٌ يُذَكِّرُ ويُبَصِّرُ ويُحَذِّرُ، فكُنْ على بصيرةٍ من أمرك، فلا يشغلك عاجلٌ عن آجل، ولا تُلهيك الرغائبُ عن العواقب.

واحفَظْ ما ترجو به رحمةَ ربِّك من إبطال أو إحباط، فكَم من عملٍ صالح أُحبِط بشركٍ، أو أُبطِلَ بِمَنٍّ أو أذىً.

فكُنْ على حَذَرٍ من فَلَتَاتِ لسانك، وفسادِ قَصْدِك، واجعلْ العاقبةَ نُصبَ عيناك ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ﴾، واجعلها أصلاً لجميع عملك ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (١)

واعلَمْ أن صلاحَ الدنيا مُقترنٌ بسعي الآخرة، فإنَّ سعي الآخرة إيمانٌ وعملٌ صالح، والعملُ الصالح لا يكون صالحاً إلا باستقامةٍ وحُسْنِ خُلُق، والإيمان الصادق يأبى على صاحبه إلاَّ أن يعمل بمقتضاه، وبه تقترن الأعمال فتُحفَظ ولا تذهب، وتنمو ولا تبطُل.

والله ﷻ قد نهى عن الإفساد بعد إصلاح، وحذَّر من إحباط الأعمال وإبطالها، فكَم من عملٍ هبطت به نيَّةُ صاحبه، وكم من فرائضَ أُدِّيَت ثم ضُيِّعَت، وخرج صاحبُها من دُنياه مُفلساً مُضَيِّعاً، بسبب إساءته لغيره، فلم تُبقِ إساءتُه على شيءٍ من

(١) القصص: من الآية ٧٧.

حسناته، بل قد تكون سبباً في أن يحمل خطايا مَن أساء إليهم وأضرَّ بهم.

ففي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: « أَتَدْرُونَ مَن الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِه، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِه، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » (١)

نعوذُ بالله من سُوء العاقبة والمصير.

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذُ بك من سخطك والنار.

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٤٦٧٨.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يُخبرُ تعالى أنَّ له مُلكُ السموات والأرض، وما فيهنَّ وما بينهُنَّ، وأنه المطَّلع على ما فيهنَّ، لا تَخفى عليه الظواهرُ ولا السرائرُ والضمائر، وإنْ دَقَّت وخَفيت.

وأخبر أنه سَيُحاسبُ عبادَه على ما فعلوه وما أخْفوه في صدورهم، كما قال: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢)، وقال: ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ (٣)

وقد أخبر في هذه بمزيدٍ على العلم، وهو المحاسبةُ على ذلك، ولهذا لَمَّا نزلت هذه الآيةُ اشتدَّ ذلك على الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها؛ وهذا من شِدَّةِ إيمانهم ويقينهم.

---

(١) البقرة: ٢٨٤.

(٢) آل عمران: ٢٩.

(٣) طه: من الآية ٧.

روى الإمامُ أحمدُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ جَثَوْا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلاَةَ، وَالصِّيَامَ، وَالْجِهَادَ، وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ، وَلا نُطِيقُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا أَقَرَّ بِهَا الْقَوْمُ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِثْرِهَا ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [1] فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ [2] » [3]

وروى الإمامُ مسلمٌ في صحيحه، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) أحمد: باقي مسند المكثرين، رقم ٨٩٧٦.

وَسَلَّمْنَا. قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ ﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ » (١)

أخي المسلم: لقد قضى الله تعالى أنَّ للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت من القول والعمل. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الرسول ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ » (٢)

وفي الصحيحين أيضاً من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ: قَالَ: قال اللَّهُ ﷻ: « إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا » (٣)

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي: لا يُكلِّفُ أحداً فوقَ طاقته، وهذا من لُطْفه - تعالى - بخَلْقه، ورأفته بهم، وإحسانه إليهم ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ أي: من خيرٍ ﴿ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ أي: من شرٍ، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف. والله ﷻ وإنْ حاسَبَ وَسَأَلَ، لكنْ لا يُعذِّبُ إلاَّ بما يملك الشخصُ دَفْعه، فأمَّا ما لا يملك دَفْعَه - من وسوسة النفس وحديثها - فهذا لا يُكَلَّفُ به الإنسانُ. وكراهيةُ الوسوسة السيئة من الإيمان.

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه لم يكلف إلا بما يستطاع، رقم ١٨٠.

(٢) البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم٢٣٤٣.

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد بحسنة كتبت وإذا همّ بسيئة لم تُكتب، رقم ١٨٣.

أخي المسلم: آياتٌ لها شأنُها. فاعْرِفْ فضلَها، واحرِصْ على تلاوتها وحُسْنِ تدبرها؛ فإنَّ مَن قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ [1]، كما جاء في صحيح البخاري، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ.

وروى الإمامُ أحمدُ عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي » [2]

واعلم – أخي المسلم – أن إيمانك يُوجِبُ عليك السَّمعَ والطاعة فيما أُمرتَ به أو نَهيتَ عنه، ومع السمعِ والطاعة قد يقعُ منك الخطأُ والنسيانُ، و « كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ »، فكُنْ من خيرهم، ولا تكن من المُصِرِّينَ الغافلين « وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ » [3]

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ اُدْعُ بهذا الدعاء وأنتَ تعمل، واعْلَم أنَّك تَمُرُّ بالدنيا ولا تُقيم، فاغتنم حياتَك قبل موتك؛ فأنت مسئولٌ بين يدي الله عن عُمُرِكَ فيما أفنيته، فكُنْ عَدلاً مع نفسك، لا تظلمها بما تحمل من سُوء قَصْدٍ أو سعي؛ فإن ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾، ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [4] إليه لا لغيره ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [5]

---

(١) راجع صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، رقم ٣٧٠٧.

(٢) أحمد: مسند الأنصار، حديث أبي ذر رضي الله عنه رقم٢٠٥٨٣.

(٣) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم٢٤٢٣، وقال: هذا حديث غريب.

(٤) الجاثية: ١٥.

(٥) البقرة: ٢٨١.